

أُصُولُ تَبَايُنِ مَوَاقِفِ الدُّوَلِ الْأَوْرَبِيَّةِ حِثَّ الْمَسْأَلَةِ السُّورِيَّةِ (اللِّبْنَانِيَّةِ) ١٨٦٠ - ١٨٦١

د. أحمد طربين

استاذ في قسم التاريخ بجامعة دمشق

نظرت دول أوروبا الى قضايا الاقطار العربية باعتبار انها من فروع
المسألة الشرقية التي تعني « مسألة اقتسام الاراضي التابعة للامبراطورية
العثمانية » .

ومعلوم ان هذه الاقطار العربية التابعة للدولة العثمانية كانت من
اهم دواعي التنازع الدولي الذي استهل بنزول حملة نابليون بونابرت
ارض مصر (١٧٩٨) ومسارعة انكلترا لمساندة العثمانيين ضده الى ان
غادرت جيوشه مصر (١٨٠١) . كذلك كان لحملة محمد علي على
بلاد الشام ١٨٣٠ - ١٨٤٠ اثر عميق فيها ، فبعد ان التزمت فرنسا جانب
محمد علي وانكلترا جانب السلطان كان من الطبيعي ان تجد دعايات
الفرنسيين وتحركاتهم صدى بين الموارد ، ودعايات الانكليز وتحركاتهم
استجابة بين الدروز ، مما جعل الموارد مساعدين لمحمد علي ، والدروز
ثائرين عليه . وانتقل الصراع التقليدي بين فرنسا وانكلترا الى الجبهة
الداخلية على شكل نزاع بين الموارد والدروز ، وبذلك اضيف عامل
جديد لعوامل المنازعات القديمة ، وغدا جبل لبنان بعد انسحاب الجيوش
المصرية مسرحا لاشنع صور الفتنة الطائفية ومثارا للمكائد الدولية
(١٨٤٥ - ١٨٦٠) . وفي غضون ذلك لم تكن السلطات العثمانية بعيدة
عن التحريض على حوادث الجبل ، ولاسيما بعد ان امتدت منها حركة
الى دمشق ، لان الحكومة العثمانية لم تقلع عن سياستها التقليدية وهي
ان تحل المشكلة بأن تبيد اصل المشكلة ، وطبقت هذه السياسة ايضا
في تعاملها مع العصبيات الاخرى في البلقان والاناضول .

لقد تحركت الحكومة العثمانية قبل التدخل الدولي ، فأسرعت بإرسال محمد فؤاد باشا وزير الخارجية بسلطات استثنائية الى سورية ، وتعهد معاينة المسؤولين بسرعة وشدة ، فأعدم والي دمشق ونفى عددا كبيرا من اعيانها وشنق عددا آخر . واختص المسلمين ببطشه في مسعى لاذلالهم والقضاء على اعتزازهم ، وفي الوقت نفسه عمل على تحريك الطوائف واثارتها لمنعها من الاتحاد الوطني والمطالبة بتحقيق الإصلاح الجدي وهكذا مضى عهد طويل على حوادث الستين المؤسفة ، واعيان البلاد لا يرتفع لهم رأس . وتدخلت أوروبا عسكريا في سورية بإرسال حملة فرنسية الى بيروت فجبل لبنان ، اضافة الى تدخلها الدبلوماسي الذي تمثل بإرسال لجنة دولية مؤلفة من ممثلي خمس دول اجتمعت في بيروت يوم ٥ تشرين الاول ١٨٦٠ ، وكانت مهامها :

- ١ - البحث في منشأ احداث سورية واسبابها وتحديد مسؤولية كل من زعمائها وانزال القصاص بهم .
- ٢ - تقدير الخسائر وايجاد الوسائل لتخفيف شقاء المنكوبين والتعويض عليهم .

٣ - اقتراح ما يجب ادخاله من تعديلات على نظام جبل لبنان الحالي لمنع تجدد الكوارث وتوطيد الامن والطمأنينة في سورية (١) .

وقد مثل الحكومة العثمانية في اللجنة الدولية وزير الخارجية محمد فؤاد باشا ، وناب عن الحكومة البريطانية اللورد دفرين ، وعن الحكومة الفرنسية المسيو بكالار قنصلها العام السابق في بخارست ، وعن الحكومة الروسية المسيو دي نوفيكوف مستشار سفارتها في الاستانة ، وعن الحكومة النمساوية المسيو دي فكبر قنصلها العام في بيروت ، وعن الحكومة البروسية المسيو دي ريفوس ، سكرتير مفوضيتها في الاستانة . وبما ان خلافات اعضاء اللجنة الدولية كان مصدرها الشك المتبادل الذي كان يعكسه الموقف الدولي في اوربا ، لذلك فليس بد من تصوير موقف كل دولة من الدول الخمس تصويرا موجزا يكفي لادراك دوافع سياستها التي اتخذتها حيال بحث المسألة السورية (اللبنانية) في اجتماعات اللجنة الدولية ، وفي المفاوضات والمؤتمرات الدولية اللاحقة .

(١) انظر أحمد طربين « أزمة الحكم في لبنان » دمشق ١٨٦٦ ، ص ١٥٦ .

وفي تناول تيارات السياسة الدولية التي اثرت على مواقف الدول الخمس ، تحسن العودة الى اوائل الثلاثينات ، حين عقد نقولا الاول قيصر روسيا معاهدة خنكار سكله سي مع السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٣٣) ، اعتبرها بالمرستون وزير الخارجية البريطانية آنذاك ضربة عنيفة موجهة اليه . وبالمرستون لم يكن يكره النظام القيصري وانما كان يكره مساحة روسيا الشاسعة وقوتها الضخمة وموقعها الجغرافي الذي يسمح لها بتهديد تركيا وفارس والهند . وزاد في قلق بالمرستون ان روسيا ستعتمد على النمسا في دعم سياستها حيال المسألة الشرقية . ذلك ان مترنيخ المستشار النمساوي كانت تقلقه انباء انتشار الروح القومية الثورية في دويلات المانيا وايطاليا الشمالية والمجر ، فبدأ يلح على قيصر روسيا وملك بروسيا بضرورة دعم (التحالف المقدس) . وفي اجتماع (منشغراتز) وعد القيصر بمساعدة مترنيخ على أمل أن لا يعارض مترنيخ في اندفاع الروس نحو الآستانة ، ولكن المستشار النمساوي بدا له ان رغبات القيصر ليست خطرا مميتا بالنسبة لتركيا فحسب ، بل بالنسبة لوجود النمسا نفسها كدولة مستقلة ايضا (١) ولذلك فعندما سأله القيصر عن رأيه في الترك اجابه : « هل يعرض مولاي علي المسألة كطبيب او كوارث ؟! » وادرك القيصر حينئذ ان النمسا ستعارض دائما السياسة الروسية في المسألة الشرقية . وعندما استقالت وزارة الاحرار التي كان بالمرستون وزير خارجيتها ، وحلت محلها وزارة روبرت بيل Peel المعروف بميله للروس ، تصور القيصر ان المسألة التركية امسى حلها قريبا ، وخاصة بعد ان استلم اللورد ابردين وزارة الخارجية وهو المعروف بعداؤه للترك . وفي مطلع عام ١٨٣٣ قام القيصر بزيارة رسمية للملكة فيكتوريا ، وتحدث الى ابردين عن (الرجل المريض) وقال انه لا يخشى احدا سوى فرنسا التي يتخوف من ان تطلب الكثير في افريقيا والبحر المتوسط وفي الشرق . وبعد ان لمح القيصر الى خطر المطامع الفرنسية المرتقبة في مصر سورية وفي البحر المتوسط ، أي في المناطق التي لا يمكن لانكلترا ان تسمح بالتفوق الفرنسي ، اتجه الى ابردين وأشار الى وجوب تفاهم روسيا وانكلترا سلفا على تقسيم تركة (الرجل المريض) لمقاومة المطامع الفرنسية والنمساوية . واللورد بيل لم يكن يجهل ان القيصر ليس له مطعم في مصر ، بل كان همه

يتركز على القسطنطينية والمضائق والافلاق والبغدان . اما الدولة التي تطمع في امتلاك مصر ، فهي فرنسا . وغادر القيصر لندن مسرورا لأنه وجد اناسا اقل صمما من مترنيخ . ولكن فأله خاب لان انكلترا تهربت من ان تعبر عن رضاها بوثيقة مكتوبة .

ان ثورات عام ١٨٤٨ في اوربا اثارت مخاوف القيصر بادية الامر، بقدر ما فتحت له فيما بعد آفاقا واسعة ليستفيد من موجة الاضطراب التي عمت القارة ، وليستثمر ما سيقدمه من معونة على الاخص للنمسا حيث تدخل لصالحها ضد المجر وضد بروسيا في (اولمز) على أمل أن تساعد في حل المسألة التركية وفق هواه . الا ان تدخله الذي ساعد النمسا على تحقيق نصر حاسم في المجر والمانيا سيكون له اثره في سرعة انصرافها للاهتمام بشؤون البلقان والوقوف في وجه الزحف الروسي . ولم يدرك القيصر خطاه الا عام ١٨٥٤ ، ولكن لم يكن له بد من التدخل في ثورة المجر خوف انتقال عدواها الى بولونيا ، وخشية قيام حكومة قوية في المجر تهدد مطامع روسيا في البلقان . وكان بالمرستون شديد القلق من ان تنهار النمسا ، وكان يخشى ان تهاجم فرنسا شمالي ايطاليا لطرد النمسيين ، وان يتلو ذلك قيام الروس بابتلاع الشعوب السلافية والاقتراب من القسطنطينية ، ولذا فقد اغتبط كثيرا عندما وقف القيصر الى جانب النمسا ولم يسمح لفرنسا الثورة ان تتوسع . وفي مطلع عام ١٨٥٣ تحدث القيصر مع هاملتون سيمور السفير البريطاني في سان بطرسبرغ ، بشأن تقسيم تركيا ، وعرض عليه مصر وجزيرة كريت مقابل ان توضع الافلاق والبغدان والصرب وبلغاريا تحت الحماية الروسية . وفي ٩ شباط وصله رد جون رسل وزير الخارجية البريطانية وكان سلبيا تماما لان رسل كان كمنظيره بالمرستون متشككا في السياسة الروسية الشرقية ، ولم يكن لديه ما يحمله على الاعتقاد بانحلال الدولة العثمانية قريبا .

وهكذا كان أمام القيصر حلان : الاول أن يطوي المشروع ، والثاني ان يلجأ الى القوة ، فيتقدم الى تركيا بمطالب تضمن لروسيا مركزا متفوقا ، فاذا رفضت ، اشهر الحرب وحطم تركيا . بيد ان القيصر لو كان يعتقد ان فرنسا والنمسا ستقفان في صف انكلترا دفاعا عن تركيا ، لاختار الحل الاول ، لانه كان يعلم ان انكلترا لا تجرؤ على اعلان الحرب عليه دون ان يكون لها حلفاء .

ولم تكن مسألة المقامات المباركة في فلسطين هي جوهر النزاع الذي شجر بين فرنسا وروسيا ، فقد اعترف دروان دوليز وزير خارجية فرنسا بأنها لم تكن بالنسبة لحكومة الامبراطور الا اداة لتفكيك عرى التحالف القاري الذي عمل منذ حوالي نصف قرن على شل حركة فرنسا ، وعندما سنحت الفرصة اخيرا لبث بذور الشقاق في داخل هذا التحالف القوي ، فالامبراطور عضاً عليها بالنواجذ (١) .

ان مساعي الامبراطور نابليون الثالث الحثيثة لفصل انكلترا والنمسا عن روسيا رافقها شوق شديد لايجاد مصاعب في الشرق حتى ولو كان خلافاً حول المقامات المباركة . ذلك انه في الشرق تختلف مصالح هذه الدول مع مصالح القيصر . وبالنسبة للقيصر كانت مسألة المقامات المباركة وسيلة ملائمة وشعبية لخلق نزاع لا مع فرنسا فقط وانما مع تركيا أيضاً . وتدرجياً بدأت هذه المسألة ترتبط بمزاعم القيصر في حق روسيا بحماية جميع الرعايا الارثوذكس في الدولة العثمانية ، وهذا يعني التدخل الدبلوماسي في شؤون هذه الدولة . ولسنا بصدد ذكر بعثة منشيكوف ومناورات السفير البريطاني في الآستانة وايعاره ببرد مطالب روسيا ، وحسبنا أن نذكر أن الحقد على نيقولا كان عاما في انكلترا وفرنسا على حد سواء . وما من حرب اجتمع لها من تأييد الجماهير ما اجتمع لهذه الحرب ضد القيصر الذي ركبه الغرور بعد قمع الحركات الثورية عام ١٨٤٨ واعتقد بتفوق روسيا ، وكان يسهو ان يتحدى العالم أجمع وان يقذف القفاز في وجهه . ونابليون الثالث نفسه وجد في هذه الحرب فرصة لبعث مجد فرنسا وتغطية تاجه بالغار والفخر (٢) .

اما النمسا فمن جهة كانت تسعى لاقتناع القيصر بالاتفاق مع تركيا بسرعة والجلاء عن المقاطعتين الدانوبييتين (الافلاق والبغدان) ، ومن جهة اخرى كانت تحاول مساومة انكلترا وفرنسا لتعرف ثمن اتخاذها موقفاً معادياً من روسيا . والنمسا التي كانت تخشى ان يطردها نابليون الثالث من لومبارديا والبندقية ، لم يخف عليها تهديد نابليون لسفيرها فيما لو وقفت على الحياد .

Potiemkine, ibid., P. 434.

(١)

Renouvin « Histoire des Relations Internationales, T. 5. P. 289.

(٢)

وبروسيا التي تشغل في الاتحاد الجرمانى مركزا يلى مركز النمسا ، كان موقفها مختلفا تماما ، فانهيار تركيا ، لا يفتقص من مصالحها الحيوية ، فى حين ان خصومتها مع روسيا قد ينجم عنها فيما بعد تحالف فرنسى روسى يؤدى الى سحقها . وتساءلت بروسيا بلسان بسمارك ممثلا فى الدييت الاتحادى عن مبرر اتخاذ موقف معاد من روسيا . أوليس كلما ضعفت النمسا قويت بروسيا ، واستقلت فى سياستها ومقدراتها ؟ (١) وعندما طال حصار سباستبول كان هم الدولتين منصرفا الى توسيع التحالف واستعداد دول اخرى ضد روسيا ، فتضطر هذه لطلب الصلح وتنتهى الحرب . ولما كانت اراضى دولتي النمسا وروسيا تتاخم حدود روسيا ، فقد أصبح لهما اهمية رئيسية فى الغزو السريع .

ان جهود روسيا للحصول على حيدة النمسا وروسيا ، ومساعى انكلترا وفرنسا لجرها الى الحرب ضد روسيا ، كانت بالنسبة لنتيجة الحرب اكثر اهمية من العمليات العسكرية (٢) وقاد الحلفاء معركة ديبولماسية ضد روسيا فكان النصر حليفهم ، واقترح وزير خارجية النمسا على بروسيا ان تتفق مع النمسا لدعوة القيصر نيقولا الى سحب جنوده من المقاطعتين الدانوبيتين ، ولم يجرؤ ملك بروسيا الذى كان يعانى من ضغط انكلترا وفرنسا ، على الرفض ، وقد غضب القيصر من هذا العمل ، ولكن سخطه على النمسا كان أشد . (٣) واضطر القيصر بعد نزول الحلفاء فى (فارنا) ان يسحب جنوده من المقاطعتين الدانوبيتين ، وبرغم سقوط سببستبول ، فقد رفضت روسيا الصلح ووصل بالمرستون الى رئاسة الوزارة البريطانية فى شباط ١٨٥٥ ، ولم يكن تواقا لانهاء الحرب ، الا بعد ان يوجه الى روسيا ضربة قاصمة عن طريق اكتساب حلفاء جدد ضدها ، ودفع نابليون الى تعزيز جيشه . والديبلوماسية البريطانية لم تكن تكتفى بأقل من الاستيلاء على شبه جزيرة القرم اولا وتسليمها الى تركيا ، ثم الاستيلاء على القفقاس واسترجاع جورجيا وجميع القفقاس الجنوبي الشرقي واقامة دولة شركسية تكون تابعة للسلطان وانكلترا ، بقصد ان تكون حاجزا يسد طريق فارس أمام الروس (٤) .

Potiemkine, op. cit., pp. 439 - 440.

(١)

Renouvin, op. cit., P. 293.

(٢)

Potiemkine, op. cit., P. 447.

(٣)

Ibid., P. 452.

(٤)

.....أصول تباين مواقف الدول الأوروبية

ولكن نابليون الثالث لم يكن يرغب في مساندة قوة انكلترا لهذه الدرجة ، بل كان يرى ان روسيا تمثل ثقلا نافعا يمكن ان يقلب ميزان انكلترا نفسها ، ويرى ان اراقة الدم الفرنسي في القفقاس لحماية الهند من الغزو الروسي أمر غير مجد لفرنسا ، ولذلك كلف الكونت مورفي Morvy بالاتصال مع روسيا بصفة شخصية .

رحب غورتشاكوف سفير روسيا في فينا بمفاتيح فرنسا ، وقال للرسول ان التقارب المباشر بين روسيا وفرنسا في المستقبل وبعد عقد الصلح ، سيكون امرا مفيدا جدا للبلدين . وارتكب المستشار الروسي نسلرود منذ بداية المفاوضات السرية خطأ أساء الى كل المباحثات ، فقد اعلم فينا بمفاوضاته مع باريس ، وحينئذ ذعرت النمسا وانزعجت من اتفاق روسيا وفرنسا الذي قد يؤدي الى عزلها عزلا خطيرا . وأبلغ وزير الخارجية النمساوية نابليون بأن حكومته مستعدة للانضمام الى الغرب نهائيا ، ولتوجيه ما يشبه الانذار الى روسيا . ونتيجة ذلك سخط نابليون على مسلك نسلرود وقطع المفاوضات . (١)

ومهما يكن الامر ، فقد ضغطت بريطانيا وفرنسا على النمسا لتقوم بمسعى من شأنه ان يرغم القيصر على قبول الصلح ، ولجأتا الى سياسة التهديد والارهاب ، فقد قبلتا التفاوض مع (كافور) رئيس وزراء مملكة سردينيا في ٢٨ كانون الثاني ١٨٥٥ لمساعدته في المسألة الايطالية مقابل ١٥ الف جندي قدمتهم سردينيا للمساهمة في حرب روسيا . وفي الوقت نفسه افهمتا النمسا انهما ستعارضان اي حركة تقوم بها سردينيا في ايطاليا اذا تعهدت النمسا بمساعدة الحلفاء ضد روسيا . (٢) واسرعت النمسا في ١٦ كانون الاول لتوجيه انذار على شكل مقترحات خمسة الى روسيا كان رفضها يعني الحرب . وبعد بضعة ايام تلقى الاسكندر الثاني رسالة من ملك بروسيا كتبت بوحى من امبراطور النمسا ، وكانت رغم رفقتها تنطوي على تهديد مباشر ، ودعوة لان يتبصر القيصر جيدا بالعواقب التي ستعرض لها المصالح الروسية البروسية نفسها اذا رفضت المقترحات النمساوية . وهنا اضطر القيصر للرضوخ ، واتضح له ان النمسا ليست اقل عداء له من انكلترا . وبقي امله معلقا بفرنسا في مؤتمر الصلح المرتقب عقده في باريس .

Ibid., P. 453.

(١)

Renouvin, op. cit., P. 296.

(٢)

افتتح مؤتمر باريس في ٢٥ شباط وانتهى بتوقيع معاهدة باريس في ٣٠ آذار ١٨٥٦ . وفي المؤتمر ركز الكونت أورلوف مندوب روسيا كل اهتمامه للتقرب من الامبراطور نابليون الثالث الذي بادله نفس الاهتمام منذ بداية الاجتماعات . وتحدث أورلوف في اول مقابلة جرت بينهما عن امكان اجراء تقارب وثيق بين روسيا وفرنسا اللتين لا تتعارض مصالحهما كثيرا . والواقع ان نابليون حصل على كل ما رغب فيه ، فقد انقذ تركيا من السيطرة الروسية ، واكسب الجيش الفرنسي مجدا جديدا وثار لسنة ١٨١٢ كما استطاع ان يوطد أركان عرشه ويحتل المقام الاول في أوربا . ومن ثم لم يكن لديه بعد ذلك كله ما يطلبه من روسيا بعد ان عقد المؤتمر في باريس ولعبت فرنسا لاول مرة بعد عام ١٨١٥ دورا رئيسيا في تصريف الشؤون الدولية . وعرف الكونت أورلوف كيف يستفيد من الفتور الذي كان يتسم به غالبا تأييد فرنسا لحليفاتها انكلترا اثناء البحث في فرض بعض القيود الثقيلة على روسيا فكان يتصلب ويرفض التوقيع لانه كان يعلم ان نابليون لا يرغب في متابعة الحرب ، وان انكلترا وحدها لن تتابع الحرب ، كل ذلك بمسرحية بارعة اتقن اخراجها فالفسكي ، وزير خارجية فرنسا ورئيس المؤتمر الذي كان يعرف تماما مشاعر امبراطوره الودية نحو روسيا وممثلها أورلوف . ومع ذلك فقد كان لهزيمة روسيا في المسألة التركية نتائج هامة ان خسرت بموجب معاهدة باريس ١٨٥٦ جميع المزايا التي حصلت عليها ابان قرن منذ معاهدة كوجك قينارجي (امتياز حماية الارثوذكس) ومعاهدة ادرنة (النفوذ المتفوق في المقاطعتين الدانوبيتين) . ولكن نتائج حرب القرم امتدت الى ابعد من المسألة الشرقية ، فقد تخلت النمسا تحت ضغط انكلترا وفرنسا عن سياسة التفاهم التي كانت تلتزمها مع روسيا منذ أمد طويل، فحكمت على نفسها بعزلة اضعفتها . اما انكلترا فقد نجحت سياستها في فرض المادة (١١) على روسيا وعلى الدول التي تمتلك سواحل البحر الاسود بخصوص حياد هذا البحر ، اي منع وجود سفن حربية وترسانات بحرية ، الامر الذي حرم روسيا من الوسائل التي كانت تستطيع بواسطتها ان تفتح المضائق وتهدد الدولة العثمانية . وبينما خسرت روسيا يسارابيا ، فان النمسا أبعدت عن المقاطعتين الدانوبيتين اللتين نالتا استقلالاً ذاتيا ضمن السيادة العثمانية، وكانت النمسا ترجو ان لا يقرر المؤتمر اجراء تغيير في وضع هاتين المقاطعتين اللتين تحتلها جيوشها . ولكن في ٢٧ آذار دعا رئيس المؤتمر فالفسكي فجأة مندوب النمسا ببرود الى احاطة المؤتمر علما بالموعد الذي تحدده

حكومته للجلاء عن المقاطعتين . وهكذا غادرت النمسا دون أن تنال من حلفائها ثمن انذارها الحاسم لروسيا . وقد ادرك اورلوف اكثر من مندوب النمسا معنى وجود كافور بين اعضاء المؤتمر . والحق ان كافور حقق كسبا معنويا حينما عرض امام الراي العام الدولي ناحيتين من المسألة الايطالية ، هما الدولة البابوية ، ومملكة نابولي ، وكل ذلك تم بموافقة نابليون الثالث . (١) والواقع انه اتضحت معالم التقارب الروسي الفرنسي في الجو السياسي لاروبا منذ توقيع معاهدة باريس ، هذا على الرغم من اختلاف موقف الدولتين من معالجة (الرجل المريض) ، ففي حين كانت روسيا ترغب في اعادة فتح ملف المسألة الشرقية وتعميم مبدأ التدخل لصالح جميع الرعايا المسيحيين في السلطنة ، كانت فرنسا تفضل الاقتصار على المفاوضة بشأن مسيحيي سورية فقط اثناء مباحثات التدخل الدولي في أعقاب حوادث الستين . وفي اجتماعات لجنة بيروت الدولية كان ممثل روسيا يؤيد في معظم الاحيان اراء ممثل فرنسا ، ولكن عندما كانت تعرض مصالح الروم الارثوذكس على بساط البحث ، لم يكن المندوب الروسي يتقيد بهذا الوفاق ، فلا يقبل بأي تنازل ، ولا يؤيد زميله الفرنسي إلا بعد لأي ، وبفتور وتردد ملحوظين . ولم يهدف في الحقيقة إلا الى خلق المشاكل وايجاد الصعوبات امام الباب العالي ، واثبت ان حالة المسيحيين في السلطنة متدهورة ، وان على الدول الاوربية ان تتدخل جماعيا لدى الباب العالي لتلزمه بتنفيذ تعهدات ما بعد حرب القرم . فكان على انكلترا ان تساعد السلطان العثماني وتدعم مركزه ، لان خطورة مساعي روسيا لم تكن تخفي عليها . فان تدخلها في شؤون المسيحيين في السلطنة وفي شؤون تركيا الداخلية كان يؤدي الى نشوب الاضطرابات والفتن في الولايات العثمانية المختلفة .

وفي جلسة ٢٨ شباط ١٨٦١ في البرلمان البريطاني ذكر أن البرنس غورتشاكوف وزير خارجية روسيا استوضح بصدد ما نشرته الصحف الاوربية عن دخول فرنسا وروسيا في حلف دفاعي هجومي ، فأجاب البرنس بأنه لا ينكر أنه يمكن أن يوجد تفاهم بين الحكومتين ، ولكن ما يمكن أن يقوله في شأنه أنه لا يتضمن شيئاً يضر بمصالح انكلترا (٢) .

Renouvin, op. cit., P. 297.

(١)

Hansard's Parliamentary Debates, vol CL x 1, P. 1093.

(٢)

ويقابل هذا المحور الفرنسي الروسي ، المحور العثماني البريطاني وكان لا بد ان تصيب هذا المحور هزات طارئة نتيجة ضغط المحور الاول على الاستانة في بعض المسائل . بيد ان موقف الدولة العثمانية رغم خطة التهرب والمواربة التي اتخذتها احيانا عندما كانت تصطدم خطط فرنسا وبريطانيا بعنف ، كان يتسم عموما بالتأييد والتعصيد لحليفها بريطانيا التي كانت تضطر بين اونة واخرى لاشهار سلاح التهديد والوعيد على تركيا لوقوفها موقفا مترددا ملاينا من السياسة الفرنسية والروسية .

أما النمسا فكان موقفها يشبه الى حد ما موقف الحكومة العثمانية من انكلترا ، يتحكم فيه من ناحية عداء روسيا لها وحقدتها الشديد عليها بعد حرب القرم ، وما تعرفه من نياتها التوسعية في امارات الدانوب وشبه جزيرة البلقان التي يقع بعض أقطارها في دائرة النفوذ النمساوي ، وتتعرض دائما للدهسائس والمكائد الروسية . ويتحكم فيه من ناحية اخرى عدم اطمئنانها الى فرنسا حليفة روسيا ، وخاصة بعد المغامرة الايطالية التي اندمج فيها الامبراطور نابليون الثالث ، فساعد مملكة سردينيا على تصفية نفوذ النمسا من دويلات ايطاليا الوسطى التي تحكمها بيوت مالكة موالية للنمسا ، وما فتى يهدد لومبارديا والبندقية التابعتين لها ، وهدفه اضعاف النمسا الدولة المحافظة التي ترى وجوب التمسك بالوضع الارضي الراهن في أوروبا بحسب معاهدات عام ١٨١٥ (١) .

وعلى الرغم من ان السياسة البريطانية في ايطاليا بعد صلح فيلا فرانكا اتسمت بكثير من العطف على الحركة القومية الايطالية ، غير ان النمسا كانت تعلم تماما ان التأييد الدبلوماسي البريطاني لا يستطيع وحده ان يحقق شيئاً ذا بال ، وانه يستهدف فقط الحلول محل فرنسا في توجيه مقدرات شبه الجزيرة الايطالية ، للحيلولة دون ارتباط (ايطاليا الموحدة) بفرنسا .

وانكلترا برغم هذا الدعم الدبلوماسي الذي تعهدت به لرد كل محاولة تأرية من جانب النمسا ، وبرغم تأييد الصحافة البريطانية للحركة القومية الايطالية ، فانها لم تكن ترغب حقاً في ان تتم الوحدة الايطالية التي من شأنها أن تخل بالوضع السائد وفي توازن القوى في البحر

.....أصول تباين مواقف الدول الأوروبية

المتوسط (١) . وكافور نفسه كان يدرك أن التأييد الديبلوماسي البريطاني غير كاف لتأمين سردينيا ضد خطر النمسا ، وأن مساعدة فرنسا هي ضرورة لصدد هذا الخطر .

يتبين من ذلك أن النمسا كان من مصلحتها أن تنحاز إلى محور انكلترا وتركيا في المحافل الدولية الهامة ، لما يوجد بينها وبين المحور المذكور من اتفاق في كثير من الشؤون التي تمس مصالحها . ولذا ستقف ضد محاولات النيل من مبدأ مراعاة سلامة أراضي الدولة العثمانية في الشرق كي تحترم سيادة السلطان في المقاطعات الأوروبية البلقانية ضد التدخل الروسي ودسائسه . لدرجة أن المندوب النمساوي أعلن في الجلسة التاسعة التي عقدتها اللجنة الدولية في بيروت ، أن الطريقة الوحيدة الناجعة في إقرار السلم هي تعزيز الحكومة العثمانية في كل أنحاء السلطنة بما فيها جبل لبنان . ولكن ظل موقفها من المسيحيين الكاثوليك في الشرق ، هو موقف المؤيد العطوف ما أمكن نكاية بفرنسا ، وسعيًا لاحتلال مكانها في حمايتهم عندما تحين الفرصة . ومعلوم أنه بعد صلح فيلافرانكا عدلت النمسا موقفها المعادي من مسألة شق قناة السويس مسيطرة لفرنسا ، وأوعزت إلى مبعوثها في الأستانة ليساند مباحثات السفير الفرنسي بشأنها ، ولكن مع الحرص على عدم إرغام الباب العالي على التصديق على امتياز القناة ، أو إثارة التعقيدات السياسية . (٢) ولكن سرعان ما بدلت النمسا موقفها وتخلت عن تأييد شركة قناة السويس لأنها أدركت أن دعم فرنسا للشركة يستهدف تأكيد الصبغة الفرنسية لا الدولية للمشروع فحسب ، ولكن أيضا لأسباب نرى أنها تتصل بمستقبل نفوذ النمسا في البلقان والدانوب ، وباحتياجها لتأييد بريطانيا لها في هذا الميدان .

(١) كتب اللورد رسل وزير الخارجية البريطانية إلى الملكة فكتوريا : «حكمت النمسا إيطاليا منذ عام ١٨١٥ حتى ١٨٥٩ فإذا شكّا الإيطاليون لأسباب معينة من هذا النفوذ النمساوي ، فليس لدى بريطانيا ما يجعلها تخشى من هذا النفوذ على مصالحها . ولكن إذا سيطرت فرنسا على الأساطيل المجتمعة في جنوا ونابولي ، فبريطانيا يمكنها أن تدافع عن ممتلكاتها في مالطة وكورفو وجبل طارق » .

Hallberg (Charles) The Suez Canal, New York, 1931, P. 172.

(٢)

اما موقف بروسيا ، فهو موقف الحياد الذي تمسكت به في حرب القرم وما بعدها ، وبما انها كانت اذ ذاك تأتي في آخر صف الدول الكبرى ، فانها رأت من الحكمة ان لا تتورط في انتهاج سياسة معينة بصدد مشاكل اوربا . (١) ولذلك فانها رفضت التدخل في المسألة الايطالية برغم الحاح كافور ، لانها خشيت انها اذا ايدت مبدأ اعادة النظر جزئيا في معاهدات ١٨١٥ ، ان تثير فرنسا من بعد مسألة الرين . وموقف المندوب البروسي في اجتماعات لجنة بيروت الدولية كان خاليا من الغرض ، يتمشى كثيرا مع مقتضيات العدل والمنطق ، ومع خطة الوفاق والوصول الى تسوية يرضى عنها جميع المندوبين الاخرين ، وظلت المشاعر المسيحية تحركه الى حد كبير .

كان هذا هو الموقف الدولي عام ١٨٦١ ، عشية اجتماعات اللجنة الدولية في بيروت ، وقد استطاع المندوب العثماني فؤاد باشا ان يحول ببراعة دون خرق اللجنة الدولية سيادة السلطان وصلاحيات موظفيه ، وكان يرى انها ينبغي ان لا تتمتع بسلطة قضائية وادارية ، بل يكفي ان تكون مهمتها استشارية بحتة .

ولبلوغ ذلك كان عليه ان ينتهج الخطة التي كان الترك ينجحون بها في الغالب ، وهي التسوية والتأجيل والمراوغة ، وبث الانقسام ، وتعويق اللجنة عن التقدم في عملها . ونحن نسجل للمندوب العثماني فؤاد باشا انه قد نجح في هذا المضمار ايمانا بنجاح ، واطهر مقدره ديبلوماسية فائقة ، وهو يومذاك في الخمسين من عمره ، له لحيه تميزه خالطها الشيب ، جميل الطلعة تتوقد بعنايه ذكاء وحيوية ، هذا الى طلاقته باللغة الفرنسية ، وشهرته في القيادة العسكرية ، وخبرة تامة بشؤون اوربا وسياساتها ، وغزارة في العلم وتفوق في المعارف والاطلاع ، على حد قول كاتب معاصره (٢) .

Da la Gorce, op. cit., P. 165.

(١)

(٢) انظر ترجمة حياة فؤاد باشا في

Edwards (R.) La Syrie 1840 - 1862, Paris 1862, pp. 185 - 188.

.....أصول تباين مواقف الدول الأوروبية

بدأت اللجنة الدولية أعمالها ، واضطر فؤاد باشا ان يتغيب عن جلساتها الاولى بداعي تدارك الامور في دمشق ، وتباطأ سير اللجنة ، وكان ينوب عنه ابرو افندي وهو ارمني كاثوليكي ، وكان ابرو كثير الاعتراض والانتقاد ، يحافظ بشدة على نظرية سيادة السلطان ، وينبري للاحتجاج على تجاوزات المندوبين حدود مهمتهم . فاذا جوبه بآراء تخالف اراء السلطات التركية ، او تثير شبهة في سلوك الحكومة او احد وكلائها أكد انه لم يتلق أية تعليمات بعد ، واجتنب كل مناقشة تحسم الموضوع . وابرو في ذلك كله يتبع تعليمات رئيسه الذي كان تارة مستقيما واضحا وتارة مراوغا داهية ، واستطاع بذلك أن يحدّ كثيرا من صلاحيات اللجنة التي ادعتها لنفسها بضغط من اوربا ، ويقيد نشاطها . تجلّى ذلك اثناء بحث المسألتين المهمتين اللتين دار حولهما جدل حاد وهما معاقبة المسؤولين عن حوادث الستين وتنظيم تعويضات المنكوبين ابان تلك الحوادث . كانت اللجنة ترغب في ان يكون لها دور الاشراف على الاحكام الصادرة ضد المتهمين والجناة ، فلم تستطيع ان تلعب هذا الدور الا بصعوبة بالغة وكانت ترغب في أن تشترك بتحديد مبلغ التعويض المستحق للمنكوبين ، ولكن الباب العالي هو الذي حدد هذا المبلغ في النهاية .

